الشرق هو على حصون عكا». هذا ما قاله نابوليون بونابرت بعد حوالى عشرين سنة من حملته على فلسطين، في منفاه في جزيرة سانت هيلانة: «لو كنت حصلت على عكا، لكنت وصلت الى القسطنطينية والهند. كنت سأُغير العالم».

الوجه الشرقي للصورة

ترافق ازدياد اهتمام الدول الاوروبية الكبرى بالسمألة الشرقية مع ظهور الضعف العثماني، من جهة، ومع خطط رسمت بغرض توطين فلسطين بيهود، من جهة اخرى. كانت المشروعات في هذا الصدد عديدة، بعدد الدول الكبرى آنذاك، واكثر قليلاً. ومن جهتها، لم تخل فرنسا، الملكية ثم الثورية، هي ايضاً من مشروعات مماثلة، ومن سياسة تجاه «المسألة اليهودية». غير ان اسباب بقاء هذه المشروعات في حيز الخطط، او التصورات، وعدم انتقالها الى اطار الفعل والتنفيذ تعود، اساساً، الى وضع فلسطين والدولة العثمانية ذاتها، والى عدم استجابة اليهود لها في الوقت عينه.

ففي الفترة التي كان نابوليون بونابرت يجهز حملته الى مصر، نُشرت، في بدايات العام ١٧٩٨، رسالة طويلة، مفتوحة، مقفلة التوقيع، على نطاق واسع في فرنسا، تحت عنوان «رسالة الى الاخوان». ولم تلبث ان نشرت، على نطاق واسع، في اوروبا كلها، وخاصة في بريطانيا؛ نشرتها بتاريخ العاشر من حزيران (يونيو) ١٧٩٨ صحيفة «بريد لندن» (*Courier des Londres*) في كراس مستقل، ثم نشرت بكاملها، بعد ذلك، في صحيفة اخرى هي «وقائع سانت جيمس» (*St. James Chronicle*) بتاريخ ١٤ تموز (يوليو) ١٧٩٩[٣].

تجدر الاشارة الى ان السياسة الفرنسية، منذ ما قبل الثورة، كانت تولي عناية خاصة وتضع الخطط من اجل كسب تأييد الاقليات وحل مشكلتهم (الأمر ذاته ينسحب على بريطانيا وغيرها منذ أيام كروموبل). يشمل هذا، بالطبع، اليهود الى جانب البروتستانت[٤]. وثمة خطة وضعتها الحكومة الفرنسية ايام الديركتوار، حتى قبل تجهيز حملة بونابرت الى الشرق في هذا الصدد.

مما يلفت النظر في امر هذه الرسالة الموجهة الى الاخوان ان مضمونها لا يختلف، اطلاقاً، عن تلك التي سيقوم بونابرت باصدارها باسمه، من جهة، او بجزء من الاجراءات التي اتخذها، بعد ان صار القنصل الاول، ثم الامبراطور، بصدد «المسألة اليهودية»، في فرنسا، فيما بعد. فالرسالة «الى الاخوان» تقترح على اليهود انتخاب مجلس تمثيلي يتفاوض باسمهم مع الحكومة الفرنسية بصدد انشاء كومنولث يهودي على ارض فلسطين، التي تقع «في مركز العالم. ستصبح مركزاً تجارياً عالمياً، وسوف تسيطر، عبر البحر الاحمر بشكل خاص، على التجارة مع الهند، والجزيرة العربية واثيوبيا وشرق افريقيا»[٥].

وككل السياسيين الكبار الذين يريدون صنع القدر، حاول بونابرت ان يلعب دوراً عالمياً، وليس فرنسياً فقط. وهذا يفسر، في الوقت عينه، سياسته المعقدة والخلاف حول تفسير اعماله. لقد كان لاعب شطرنج كبيراً في مجال السياسة؛ لاعباً لا يخلو، بالطبع، من العبقرية والذكاء. وكان، في الاساس، ابناً مخلصاً للثورة الفرنسية، التي كانت بورجوازية بامتياز. كان يلمس، في طريقه، كيف كانت الشعوب في اوروبا تستقبله. وقد عرف قوة هذا العامل الكبير في اضعاف خصومه، وهذا يفسر آماله في ان سكان مصر وسوريا سوف يساعدونه بالثورة ضد السلطنة العثمانية؛ كما يفسر، في الوقت عينه، رسالته الى المصريين في مطلع حملته. فهي مكتوبة بلغة الناس. وحتى «بما يناسب عقولهم»: «بسم الله الرحمن الرحيم»، هكذا بدأ: « قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم، ايضاً، مسلمون مخلصون... اثبات ذلك انهم نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان، دائماً، يحث النصارى على محاربة